سورة يوسف: نموذج قرآني للتكامل بين الاقتصاد الإسلامي والأمن الفكري والروحي

د. صالح حسن عرابي

أستاذ الشريعة الإسلامية والخبير الاقتصادي

عضو جمعية المصرية للاقتصاد السياسي والتشريع والاحصاء

تُعد يوسف عليه السلام من أعظم السور القرآنية التي تجمع بين جمال السرد وعمق المعنى، حيث تتداخل فيها الأبعاد الاقتصادية، الفكرية، والروحية في نسيج متكامل. هذا الموضوع يُقدّم قراءة تحليلية ل يوسف عليه السلام من منظور ثلاثي: الاقتصادً الإسلامي، الأمن الفكري، والتأمل الروحي، بهدف إبراز كيف يمُكن للنص القرآني أن يُشكّل نموذجًا معرفيًا متكاملاً يستجيب لتحديات الواقع ويُغذي الروح والعقل معًا.

سورة يُوسُفَ مِنْ مَنْظُورِ الاقْتِصَادِ الإِسْلَامِيِّ

أَوَّلاً: الرُّؤْيَا كَمَدْخَلٍ لِلتَّخْطِيطِ الاقْتِصَادِيِّ

الرؤيا التي رآها الملك، قَالَ تعالى: **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ** (يوسف: ٤٣) ، تُشكّل مدخلاً لتأسيس دورة اقتصادية قائمة على التنبؤ، التخطيط، والإدارة الرشيدة. يوسف عليه السلام يُفسّر الرؤيا ويُحوّلها إلى خطة عملية، مما يُبرز أهمية الرؤية الاستراتيجية في الاقتصاد الإسلامي.

وردت رؤية التخطيط الاقتصادي في يوسف، حين قصّ الملك رؤياه على يوسف عليه السلام، فجاءه التفسير مقرونًا بخطة عملية متكاملة. قَالَ تعالى: **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ** (يوسف: ٤٧) ، قَالَ تعالى: **ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ** (يوسف: ٤٨) ، قَالَ تعالى: **ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** (يوسف: ٤٩). هذه الآيات تُقدّم ثلاث مراحل متكاملة:

المرحلةُ الأُولى: مرحلةُ الإنتاجِ المُكثَّفِ مع تَقنينِ الاستِهلاكِ

أوَّلاً: الإشارةُ إلى الإنتاجِ المُكثَّفِ: يتجلى مبدأ الإنتاج المكثف في قول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

- قَالَ تعالى: **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا** (يوسف: ٤٧) ، "دَأَبًا": تعني الاستمرار والجدّ، وهي دلالة على تكثيف العمل الزراعي دون توقف.
- هذه المرحلة تمثل سياسة اقتصادية قائمة على تعظيم الإنتاج في وقت الرخاء استعداداً لفترة الشدة.
- يوسف عليه السلام لم يكتفِ بتفسير الرؤيا، بل قدّم خطة اقتصادية عملية تبدأ بالإنتاج المكثف.

ثانيًا: تَقنينُ الاستِهلاكِ: يتبع الإنتاج المكثف توجيهٌ واضح لتقنين الاستهلاك، قَالَ تعالى: **فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ** (يوسف: ٤٧):

- الأمر بترك المحصول في سنبله هو أسلوب حفظ استراتيجي يمنع التلف ويطيل عمر التخزين.
- "إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ" تشير إلى تقنين الاستهلاك، بحيث يُستهلك فقط ما يكفي دون إسراف.
- هذا يعكس مبدأ الاقتصاد الإسلامي في التوازن بين الإنتاج والاستهلاك، وتجنب التبذير حتى في وقت الوفرة.

ثالثًا: الرَّبطُ بالمفاهيمِ الاقتصاديَّةِ الإسلاميَّةِ:

- **الإنتاج المكثف**: يتوافق مع مبدأ العمل والإعمار في الإسلام. قَالَ تعالى: **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** (هود: ٦١).
- **تقنين الاستهلاك**: قَالَ تعالى: **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** (الاعراف: ٣١).
- الجمع بينهما يُؤَصِّلُ لِمَنْهَجٍ اقْتِصَادِيٍّ إِسْلَامِيٍّ يُرَاعِي دَوْرَ الإِنْسَانِ فِي التَّدْبِيرِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ وَالحِكْمَةِ.

المرحلةُ الثَّانيةُ: مرحلةُ الأَزْمةِ والمجَاعةِ، مع الاعتمادِ على المخزونِ

أوَّلاً : تَوصيفُ الأَزْمةِ : قَالَ تعالى : **ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ** (يوسف : ٤٨) .

- "سَبْعٌ شِدَادٌ" : وصف دقيق لسنوات المجاعة، حيث الشدة تعني القحط، وانعدام الإنتاج .
- "يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ" : دلالة على الاعتماد الكلي على المخزون السابق .
- "إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ" : يشير إلى أن بعض المخزون سيبقى محفوظًا، مما يدل على كفاءة التخزين ووجود فائض احتياطي .

ثانيًا : إدارةُ الأَزْمةِ وَفْقَ مَنْهَجٍ اقتصاديٍّ :

- يوسف عليه السلام لم يكتفِ بالتخزين، بل قدّر حجم الاستهلاك المتوقع، وضمن استمرارية التوزيع على مدار سبع سنوات .
- هذا يُجَسِّدُ مبدأ الاسْتِبَاقِ وَالإِدَارَةِ الرَّشِيدَةِ لِلأَزْمَاتِ[1]، وهو من صميم الاقتصاد الإسلامي الذي يربط بين التخطيط والرحمة .

ثالثًا : البُعْدُ الأَخلاقيُّ في تَوزيعِ المَخزونِ :

قَالَ تعالى : **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ** (يوسف : ٥٨) ، ثم قَالَ تعالى : **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ** (يوسف : ٧٠)

- يوسف عليه السلام وزّع من المخزون على الناس، بما فيهم إخوته، دون تمييز أو احتكار .
- استخدم العدل والرحمة في التوزيع، وهو ما يُؤَصِّلُ لِمَنْهَجِ الاقْتِصَادِ الإِسْلَامِيِّ فِي زَمَنِ الأَزَمَاتِ .

المرحلةُ الثَّالثةُ : مرحلةُ التَّعافي والعودةِ إلى الوَفْرةِ والرَّخاءِ

أوَّلاً : انْتِهاءُ الأَزْمةِ وبدءُ مرحلةِ الوَفْرةِ :

قَالَ تعالى : **ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** (يوسف : ٤٩) .

- "عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ" : إشارة إلى نزول المطر وعودة الإنتاج الزراعي، مما يدل على بداية التعافي الاقتصادي .

[1] هو التخطيط المسبق لما قد يقع من أزمات، واتخاذ إجراءات واستراتيجيات ذكية للتخفيف من آثارها، وضمان استمرار الحياة والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي. راجع: التخطيط الاستباقي: إدارة الأزمات: الاستعداد لأي شيء: إدارة الأزمات والتخطيط الاستباقي Faster Capital -

- "وَفِيهِ يَعْصِرُونَ" : تعني استخراج الزيوت والعصائر، وهي دلالة على الوفرة والرخاء بعد سنوات الشدة.

ثانيًا : التَّمكينُ الاقتصاديُّ والإداريُّ:

قَالَ تعالى :**وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ**(يوسف : ٥٦).

- التمكين هنا ليس مجرد سلطة، بل هو قدرة على إدارة الموارد، وتوجيه الاقتصاد نحو الاستقرار.
- يوسف عليه السلام أصبح صاحب القرار الاقتصادي، مما مكّنه من إعادة بناء المجتمع على أسس العدل والكفاءة.

ثالثًا : البُعْدُ الاجتماعيُّ في التَّعافي:

قَالَ تعالى : **وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** (يوسف : ٩٩).

- الأمن هنا ليس فقط أمنًا جسديًّا، بل اقتصاديًّا واجتماعيًّا، حيث عاد الناس إلى بيئة مستقرة.
- هذا يعكس مبدأ الاقتصاد الإسلامي في ربط الرخاء بالأمن الشامل، وهو ما يُؤَصِّلُ لِمَنْهَجِ التَّعَافِي بَعْدَ الأَزَمَاتِ.

وقد أشار المفسرون، كابن عاشور (ابن عاشور، ١٩٨٤)، والرازي (الرازي، د.ت) ، إلى أن هذه الخطة تجُسّد أعلى درجات الفطنة، والتدبير، والرحمة، حيث لم يكتف يوسف عليه السلام بتفسير الرؤيا، بل قدّم برنامجًا اقتصاديًا وقائيًا، يُراعي الزمن، والموارد، والناس.

ثَانِيًا : الأَبْعَادُ الاقْتِصَادِيَّةُ فِي رُؤْيَا يُوسُفَ عليه السلام

أوَّلاً : التَّنَبُّؤُ الاقتصاديُّ:

يُعدّ التنبؤ الاقتصادي من الخصائص الجوهرية في الفكر الاقتصادي الإسلامي، لا بوصفه عملية احتمالية، أو آلية كما هو الحال في النماذج الوضعية، بل باعتباره ممارسة العقل والوحي التي تستند إلى السنن الكونية، والمقاصد الشرعية، والمعايير الأخلاقية. ويتجلى هذا البُعد بوضوح في النموذج القرآني ليوسف عليه السلام، الذي لم ينتظر وقوع الأزمة الاقتصادية، بل بادر إلى تحليل مقدماتها والتخطيط الاستباقي لمواجهتها، مستنداً إلى قراءة مستقبلية واعية تُفعّل العقل في ضوء الوحي، وتُراعي قوانين الله في الاجتماع البشري والاقتصادي.

التنبؤ الاقتصادي في الفكر الإسلامي له خصائصه ومقوماته، وهي:

١- التنبؤ السنني "قوانين الله في الكون والمجتمع": يعتمد الفكر الإسلامي على السنن الإلهية في تفسير الظواهر الاقتصادية[1]، مثل:

- **سنة الاخذ بالأسباب**: لا يتحقق الرزق إلا بالسعي والعمل، الاقتصاد الإسلامي لا يعترف بالركون إلى التواكل، بل يربط البركة بالجد والاجتهاد.
- **سنة الجزاء**: الربا، الغش، الاحتكار... كلها تؤدي إلى فساد اقتصادي، ويترتب عليها جزاء دنيوي وأخروي، السنن هنا تربط بين

الأخلاق الاقتصادية والنتائج الواقعية.

- **سنة التداول**: في القرآن الكريم هي من السنن الإلهية التي تحكم حركة التاريخ وتبدل الأحوال بين الأمم، وهي تعبير عن قانون إلهي في انتقال السلطة والتمكين من أمة إلى أخرى بحسب استحقاقها الإيماني والأخلاقي. تعني أن الله يُداول الأيام بين الناس، فينتقل النصر والتمكين من أمة إلى أخرى. التداول لا يكون عبثًا، بل هو اختبار وتمحيص وتمييز بين المؤمنين والكافرين. قَالَ تعالى: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (آل عمران: ١٤٠)، التداول يتوسط بين "الاستخلاف" و"الاستبدال"، وهو مرحلة انتقالية تمكّن الأمم من إثبات جدارتها.
- **سنة التمكين**: هي من السنن الإلهية التي تحكم حركة التاريخ، وتُعنى بتمكين المؤمنين في الأرض بعد تحقق شروط معينة من الإيمان والعمل الصالح. إنها وعد إلهي مشروط، لا يتحقق إلا إذا استوفت الأمة المؤمنة شروط الاستخلاف والتمكين. تعني: أن الله يُمكّن لعباده المؤمنين في الأرض، فيجعل لهم سلطانًا، وأمنًا، واستقرارًا، وقدرة على تنفيذ منهجه، بشرط تحقق الإيمان والعمل الصالح. قَالَ تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

[1] السنن الإلهية هي القوانين الثابتة التي وضعها الله في الكون والمجتمع، والتي تحكم حركة التاريخ، وسلوك الأفراد والجماعات، وتترتب عليها نتائج محددة وفقًا للعدل الإلهي. وهي ليست مجرد قوانين طبيعية، بل تشمل أيضًا السنن النفسية والاجتماعية والاقتصادية. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ [الرعد: 11]، هذه سنة إلهية تربط التغيير الاقتصادي والاجتماعي بالتغيير الداخلي.

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (النور : ٥٥) ، التمكين لا يُعطى لمن يطلبه مجردًا، بل لمن يستحقه بمنهجه وسلوكه.

- **سنة الابتلاء**: هي من السنن الإلهية الثابتة التي تحكم حياة الإنسان فردًا وجماعة، وهي تمثل اختبارًا إلهيًا يُميز به الله بين الصادق والكاذب، وبين المؤمن والمنافق، وبين الصابر والجازع. إنها ليست عقوبة، بل وسيلة للتمحيص والتربية والارتقاء الروحي. قَالَ تعالى : **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** (الملك : ٢) ، الابتلاء ليس دليل سخط من الله، بل هو سنة تربوية.

٢- التنبؤ الأخلاقي والسلوكي: يُراعي الفكر الإسلامي أثر الأخلاق الفردية والجماعية في تشكيل النتائج الاقتصادية، مثلاً: انتشار الربا والاحتكار يؤدي إلى أزمات اقتصادية، كما قَالَ تعالى : **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** (البقرة : ٢٧٦).

٣- التنبؤ المقاصدي: يُستشرف المستقبل الاقتصادي بناءً على تحقيق المقاصد الشرعية: حفظ المال، النفس، الدين، العقل، والنسل.

٤- التنبؤ المشروط بالعدل: الفكر الإسلامي يربط الاستقرار الاقتصادي بتحقيق العدالة الاجتماعية، وتوزيع الثروات، ومنع الظلم. إذا اختلّ ميزان العدل، فإن التنبؤ يكون بانهيار أو اضطراب، كما في قَالَ تعالى : **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ** (هود : ١٠٢).

ثانيًا : الاقتصادُ الإنتاجيُّ لا الاستِهلاكيُّ:

يوسف عليه السلام يُوصي بتخزين المحاصيل خلال سنوات الرخاء: قَالَ تعالى : **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا** (يوسف : ٤٧) ، الفكرة القرآنية في يوسف عليه السلام حول الادخار تُقدّم نموذجًا اقتصاديًا متقدمًا، يُركّز على الادخار الإنتاجي لا الاستهلاكي، وهو ما يُجسّد رؤية متكاملة للتعامل مع الأزمات، وتحقيق الأمن الغذائي، وضمان الاستدامة الاقتصادية. هذا النموذج لا يقوم على تكديس المال أو تخزين الموارد من أجل الاستهلاك الفوري، بل على حفظها بطريقة تُبقيها صالحة لإعادة الإنتاج، وتُراعي البركة، والعدالة، والرحمة.

وَقد قَالَ تعالى على لسان يوسف عليه السلام: **فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ** (يوسف: ٤٧) ، يتجلّى مفهوم الادخار الإنتاجي، حيث يُطلب من الناس أن يحتفظوا بالحبوب داخل سنابلها، وهي طريقة ذكية لحفظها من التلف، ولضمان صلاحيتها لإعادة الزراعة لاحقًا. فالمقصود ليس فقط تخزين الطعام، بل حفظ البذور، وتأمين دورة إنتاجية مستمرة، تُراعي المستقبل، وتُقلّل الهدر، وتُفعّل البركة. هذا التوجيه يعكس فهمًا دقيقًا لسلوك المستهلك في أوقات الرخاء، ويحث على مقاومة النزعة الاستهلاكية المفرطة، وهو ما يتقاطع مع ما طرحه Richard Thaler في نظريته حول "التحفيز السلوكي" (Nudge Theory)، حيث يُستخدم التوجيه غير القسري لتعديل السلوك الاقتصادي. وهذا ما يُعرف اليوم "بنظرية التقليل الاستهلاكي"[1]، حيث يُطلب من الناس أن يستهلكوا القليل، ويُدّخروا الكثير، لا من باب البخل، بل من باب الحكمة والتخطيط، لأن أوقات الشدة لا تحتمل التراخي أو الإسراف.

وفي دراسة علمية منشورة بعنوان دلالة يوسف عليه السلام على مقصد حفظ المال وأثر ذلك في مواجهة الأزمة الاقتصادية المعاصرة (الربايعة، ٢٠٢٢) ، يُبيّن الباحثان أن هذه الآية تُعبّر عن مقصد شرعي عظيم، وهو حفظ المال من جانب الوجود، أي ضمان استمراريته، ومن جانب العدم، أي حمايته من الضياع، وأن هذا المنهج يُسهم في مكافحة الأزمات المعاصرة مثل التضخم، وسوء التوزيع، والإفلاس.

إن الادخار الإنتاجي في يوسف عليه السلام يُقدّم نموذجًا اقتصاديًا رحيمًا، يُراعي الإنسان والزمان، ويُفعّل التخطيط، ويُربّي على القناعة، ويُجنّب المجتمع الهلع، ويُعيد تعريف العلاقة بين المال والزمن، بين الاستهلاك والاستدامة، بين التخزين والتكافل.

ثالثًا: التَّخزينُ الذَّكيُّ:

[1] **نظرية التقليل الاستهلاكي:** ليست مصطلحاً شائعاً بذاته في الأدبيات الاقتصادية الكلاسيكية، ولكن يمكن فهمها ضمن إطار أوسع من النظريات التي تتناول سلوك المستهلك والمنفعة، خاصة في سياقات مثل الزهد، الاستدامة، أو الاقتصاد السلوكي. يمكن فهمها كاتجاه فكري أو سلوكي يقوم على: تقليل الإنفاق والاستهلاك غير الضروري، إعادة تقييم الحاجات والرغبات وفقاً لمعايير أخلاقية، بيئية، أو روحية، تحقيق الإشباع النفسي أو الروحي من خلال البساطة، لا التراكم.

الاحتفاظ بالغلال في سنابلها يُشير إلى أهمية حفظ الموارد بطريقة تُراعي البركة، وتُقلّل الفساد، وهو ما يُعرف اليوم بالاقتصاد المستدام[1]، الذي يُراعي البيئة والموارد.

رابعًا: العَدالةُ في التَّوزيعِ:

في سنوات المجاعة، لم يحتكر يوسف عليه السلام الطعام، بل وزّعه بعدل، مما يُجسّد مبدأ الاقتصاد الأخلاقي، حيث تُراعى حاجات الناس دون استغلال أو احتكار، وهو ما يُعد من ركائز الفقه الاقتصادي الإسلامي.

العدالة في التوزيع كما تجلّت في يوسف عليه السلام تُعدّ من أبرز النماذج القرآنية التي تجُسّد الاقتصاد الإسلامي في أبعاده الأخلاقية والرحيمة، حيث لا يُفهم المال على أنه سلطة، بل أمانة، ولا يُدار من أجل التراكم، بل من أجل التكافل، ولا يُوزّع وفق القوة، بل وفق الحاجة والعدل.

في سنوات الشدة، لم يُحتكر الطعام، ولم يُمنع عن الفقراء، بل وُزّع وفق خطة عادلة، تُراعي الحاجة، وتُحفظ فيها الكرامة. وقد أشار المفسرون إلى أن يوسف عليه السلام كان يُعطي الناس بقدر ما يكفيهم، دون إسراف، ودون إذلال، بل كان يُراعي في التوزيع مقامات الناس، وظروفهم، واحتياجاتهم، مما يُجسّد العدالة في أرقى صورها.

إن العدالة في التوزيع في يوسف عليه السلام تُقدّم نموذجًا اقتصاديًا يُراعي الإنسان، ويُفعّل الرحمة، ويُعيد تعريف المال بوصفه وسيلة للنجاة، لا أداة للهيمنة. وهي رؤية تصلح أن تكون أساسًا في بناء السياسات الاقتصادية الإسلامية، خاصة في زمن الأزمات، حيث يُصبح العدل هو الضمان الوحيد للاستقرار، والرحمة هي الجسر الحقيقي بين الحاكم والمحكوم.

خامسًا: الحَوْكَمةُ الاقتصاديَّةُ والكفاءةُ المُؤسَّسيَّةُ:

عندما تولّى يوسف عليه السلام خزائن الأرض، قَالَ تعالى: **اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** (يوسف: ٥٥)، يُعد تصريحًا إداريًا ذا دلالة اقتصادية عميقة. يوسف عليه السلام يربط بين الأمانة

[1] **الاقتصاد المستدام:** هو نموذج اقتصادي يهدف إلى تحقيق النمو طويل الأجل دون الإضرار بالجوانب البيئية أو الاجتماعية أو الثقافية. إنه يسعى إلى تحقيق التوازن بين التنمية الاقتصادية وحماية الموارد الطبيعية، بحيث يمكن للأجيال الحالية والمقبلة الاستفادة من الثروات دون استنزافها أو تدميرها. هو نظام اقتصادي يراعي: الاستخدام الفعّال للموارد دون استنزافها. تحقيق النمو الاقتصادي مع الحفاظ على البيئة. العدالة الاجتماعية وضمان رفاهية المجتمعات.

"الحفيظ"، والمعرفة "العليم"، وهما ركيزتان في الحوكمة الرشيدة. هذا النموذج يُخالف النماذج السلطوية التي تربط المنصب بالقوة أو الوراثة، ويُؤسس لمبدأ "الجدارة الأخلاقية"، الذي يُعد من أسس الاقتصاد الإسلامي.

ثَالِثًا: التَّمْكِينُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ عليه السلام

١- التَّمكينُ بوَصْفِهِ وَعْدًا إِلٰهِيًّا مَشروطًا:

قَالَ تعالى: **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (يوسف: ٥٦)، التمكين هنا ليس عشوائيًا، بل هو نتيجة لسلسلة من المواقف التي أظهر فيها يوسف عليه السلام الإحسان، والصبر، والعلم، والقدرة على إدارة الأزمات.

٢- الكفاءةُ بوَصْفِها شَرطًا للتَّمكينِ:

عندما قال يوسف عليه السلام للملك: **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** (يوسف: ٥٥)، فهو لم يطلب المنصب رغبةً في السلطة، بل بناءً على كفاءته العلمية والإدارية، وعلى إدراكه لطبيعة الأزمة الاقتصادية القادمة. وقد تم اختيار يوسف عليه السلام جاء بناءً على معيارين أساسيين: الأمانة والعلم، وهما جوهر الكفاءة القيادية في الإسلام.

يوسف عليه السلام لم يُقدّم صفة "القوة" رغم امتلاكه لها، بل ركّز على ما يُناسب الظرف الاقتصادي: الحفظ والعلم. وهذا يُبرز فقه الأولويات في القيادة، حيث تُقدّم الصفات المناسبة للمهمة، لا الصفات العامة.

٣- التَّمكينُ بوَصْفِهِ نَتيجةً للتَّزكيةِ والابتلاءِ:

قَالَ تعالى: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** (يوسف: ٢٢)، فالكفاءة هنا ليست فقط علمًا، بل حكمة، وهي ثمرة التزكية، والصبر على الابتلاء، والنجاح في امتحانات السجن، والفتنة، والظلم. وأن التمكين في الأرض يسبقه تمكين في النفس، وأن يوسف عليه السلام لم يُمكّن له حتى تخلّص من كل شوائب النفس، وأثبت قدرته على الصبر والإحسان.

٤- الكفاءةُ والتَّمكينُ في إدارةِ الأَزَماتِ الاقتصاديَّةِ:

رؤية يوسف عليه السلام في التعامل مع أزمة المجاعة تُبرز كفاءته في التخطيط، والإدارة، والتوزيع، والتخزين، والتواصل مع الناس. وقد قال الملك: **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** (يوسف: ٥٤)، فهو مكين في المنصب، وأمين في الأداء، وهي صفات تجُسّد القيادة الاقتصادية في الإسلام، حيث لا يُفصل بين الكفاءة الأخلاقية والكفاءة الفنية.

سورة يُوسُفَ عليه السلام مِنْ مَنْظُورِ الأَمْنِ الفِكْرِيِّ

تُعدّ يوسف عليه السلام من أعظم السور القرآنية التي تجُسّد الأمن الفكري في أبعاده النفسية، التربوية، والاجتماعية. فهي ليست مجرد سرد لقصة نبي، بل مدرسة متكاملة في بناء الوعي، وتحصين الفكر، وتفعيل البصيرة في مواجهة الفتن، والانحرافات، والتزييف. ومن خلال مشاهدها المتنوعة، تُقدّم ال نموذجًا قرآنيًا يُرشد الإنسان إلى كيفية حماية عقله من الغواية، وتثبيت قلبه في مقام اليقين، وتوجيه فكره نحو الاستبصار، لا الانبهار.

أوّلاً: الوَعيُ كَمَدخَلٍ لِلأمنِ الفِكريِّ:

منذ البداية، يُعلّم يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عليه السلام فنّ الحذر الفكري، حين قال له: **يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** (يوسف: ٥)، هذا التوجيه يُبرز أهمية الوعي بالبيئة النفسية والاجتماعية، وعدم الإفراط في كشف الذات، وتجنّب إثارة الحسد، وهي كلها عناصر تُسهم في بناء عقل متزن، يُدرك أن الفكر لا يُنشر إلا في بيئة آمنة، وأن الصدق لا يعني السذاجة.

لذلك تُعلّمنا الآية كيف نُدير مشاعرنا، ونُوازن بين الحب والعدل، ونُراعي أثر التفرقة في تشكيل الانحرافات الفكرية داخل الأسرة، مما يُبرز أن الأمن الفكري يبدأ من الأسرة، ومن التربية، ومن العدالة الشعورية.

ثانيًا: التَّحصينُ مِنَ الانْحِرافاتِ الفِكريَّةِ:

يوسف عليه السلام تُقدّم نماذج متعددة للانحراف الفكري:

١ . إخوة يوسف عليه السلام الذين غلبهم الحسد، فبرّروا الجريمة بمنطق زائف، حيث قالوا: **يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** (يوسف : ١٧) .

٢ . امرأة العزيز التي غطّت الشهوة بقناع الفضيلة . قَالَ تعالى : **قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (يوسف : ٢٢) .

٣ . المجتمع الذي سجن البريء، وصدّق التهمة دون دليل . قَالَ تعالى : **ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ** (يوسف : ٣٥) .

لكن يوسف عليه السلام ظلّ ثابتًا، مُحصّنًا، لم ينحرف رغم الفتنة، ولم يتنازل رغم الظلم، بل قال في لحظة الاختبار : **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** (يوسف : ٣٣) ، وهذا الموقف يُجسّد أعلى درجات التحصين الفكري، حيث يُقدّم يوسف عليه السلام نموذجًا للوعي الأخلاقي، الذي يُفضّل السجن على الانحراف، ويُقاوم الفتنة باليقين، ويُثبت أن الأمن الفكري لا يُبنى بالقوة، بل بالإيمان .

الانفعالات البشرية، من الغيرة والخوف والفتنة، تُؤثر في الفكر، وأن النبي المرسل من رب العباد يُواجهها بالثبات، والتزكية، والتأمل، والصبر، واليقين مما يُبرز أن الأمن الفكري لا ينفصل عن الأمن النفسي .

ثالثًا : الاسْتِبْصارُ كَذُرْوَةٍ لِلأمنِ الفِكريِّ :

الاستبصار هو القدرة على رؤية ما وراء الظاهر، وفهم السنن، وتوقّع المستقبل . وقد تجلّى ذلك في تفسير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك، حيث لم يكتف بالشرح، بل قدّم خطة اقتصادية متكاملة، تُراعي الإنتاج، والتخزين، والتوزيع، والتعافي . قال : **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** (يوسف : ٤٧-٤٩) ، وهذا يُبرز أن الفكر المستبصر لا يكتفي بردّ الفعل، بل يُبادر، ويُخطّط، ويُوجّه، ويُحصّن المجتمع من الأزمات .

تُعلّم الآية الإنسان كيف يُفكّر في ظل الابتلاء، وكيف يُحوّل المحنة إلى منحة، وكيف يُعيد بناء ذاته من داخل السجن، مما يُجسّد أن الاستبصار هو ثمرة الصبر، والتزكية، والتأمل، واليقين .

سورة يُوسُفَ عليه السلام مِنْ مَنْظُورِ التأمُّلِ الرُّوحِيِّ

يوسف عليه السلام ليست مجرد سرد قرآني لقصة نبي، بل هي نص كوني يتجلى فيه الإنسان الكامل بوصفه نقطة التقاء بين الغيب والشهادة، بين الجمال الإلهي والتاريخ البشري، وبين وحدة الذات وتعدد الصفات. يوسف عليه السلام، في الرؤية الروحية، ليس فقط نبيًا، بل هو صورة الجمال الإلهي حين يتجلى في عالم الإمكان، وهو مرآة للحق في تجليه الأحسن، كما وصفه الشيخ الأكبر ابن عربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فإن الله تجلى لخلقه في صورة الإنسان، فكان الإنسان الكامل مرآة الحق، يرى فيها الحق نفسه كما يرى الخلق الحق فيها" (ابن عربي، ١٣٢٩، ص ١٢٥).

بهذا التأسيس، تصبح يوسف عليه السلام خارطة روحية لتجليات الإنسان الكامل، حيث تتدرج المقامات من الكشف إلى الفناء، ومن المجاهدة إلى البقاء، ومن التفرقة إلى الوحدة، وهي مراحل تتطابق مع مسار السالك في طريق الله، كما فصّلها القشيري في الرسالة (القشيري، ١٩٨٩)، والجيلي في الإنسان الكامل (الجيلي، ١٣٦٨).

أوّلاً: الرُّؤيا: إشراقُ النُّورِ الإلٰهيِّ في النَّفْسِ النَّبويَّةِ:

الرؤيا التي تبدأ بها ال: **إِذْقَالَيُوسُفُلِأَبِيهِيَاأَبَتِإِنِّيرَأَيْتُأَحَدَعَشَرَكَوْكَبًاوَالشَّمْسَوَالْقَمَرَرَأَيْتُهُمْلِي سَاجِدِينَ** (يوسف: ٣٥)، ليست مجرد حلم، بل هي كشف أولي، يُعلن عن بنية الوجود كما تتجلى في النفس النبوية. في تأويل ابن عربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الكواكب تمثل القوى النفسية، والشمس والقمر هما العقل والقلب، وكلها تنقاد للنور الإلهي المتجلي في يوسف عليه السلام، الذي يمثل الذات المتجلية، لا الذات المنفصلة (ابن عربي، ٢٠٠٦، ص ١٢٦). يقول الشيخ الأكبر ابن عربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الرؤيا الصادقة هي أول التجلي، وهي إشراق نور الحق في مرآة النفس، فإن رأى الإنسان الكواكب ساجدة له، فقد تجلى له الكون في صورة الخضوع، وهو مقام التمكين قبل التكوين" (ابن عربي، ١٣٢٩، ص ٢٣١).

أما الجيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيعتبر هذه الرؤيا إعلانًا عن مقام الإنسان الكامل، الذي يجمع بين العقل الكلي والنفس الكلية والقوى الجزئية، في وحدة وجودية لا تتكرر إلا فيمن تحقق بالحق. يقول الإمام

الجيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام هي تجلي الذات في صورة الكثرة، وهي إعلان عن مقامه، حيث تنقاد له القوى الكونية، لأنه حامل سر الجمع" (الجيلي، ١٣٦٨، ص ٥٩).

ثانيًا: الجُبُّ: مَقامُ الفَناءِ الأوَّلِ في ظُلُماتِ النَّفْسِ:

الجب، في الرؤية الروحية، ليس مجرد حفرة، بل هو رمز للهبوط الأنطولوجي، حيث يُلقى الإنسان الكامل في ظلمات الإمكان، ويُسلب من تجليه، ليبدأ رحلة العودة. يقول السهروردي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الجب هو مقام الغربة، حيث يُسلب النور، ويُلقى السالك في ظلمات النفس، ليبدأ التخلية، فإن خرج منه فقد تحقق بالفناء الأول" (السهروردي، ٢٠١٠، ص ٦٨). يوسف عليه السلام في الجب هو صورة الإنسان حين يُجرد من ذاته، ويُلقى في غيابة النفس، ليبدأ التلقي. في هذا المقام، لا يكون فاعلاً، بل مفعولاً به، لأنه في طور التلقي، حيث يُعاد تشكيله من جديد. الجب هو رحم الوجود، حيث يُولد الإنسان الكامل من جديد، بعد أن يُسلب من صورته الأولى.

ثالثًا: بيتُ العَزيزِ: اخْتِبارُ الجَمالِ الظَّاهريِّ ومَقامُ المُجاهَدةِ:

المرأة التي راودت يوسف عليه السلام ليست مجرد شخصية، بل هي رمز للنفس الأمارة، التي تُغوي الإنسان بالصورة، وتُبعده عن المعنى. يقول الإمام القشيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "المرأة في قصة يوسف عليه السلام هي النفس، وراودته عن نفسه، أي طلبت منه أن يتبع الهوى، لكنه أبى، لأنه رأى الجمال لا بوصفه غاية، بل بوصفه تجليًا" (القشيري، د.ت، ص ١٨٠).

رفض يوسف عليه السلام هو رفض للتعلق، لا رفض للجمال، لأنه يرى في الجمال تجليًا، لا غاية. الإنسان الكامل لا يُغوى بالصورة، لأنه يرى ما وراءها، ويُدرك أن الجمال الحقيقي هو جمال المعنى، لا جمال الشكل. في هذا المقام، يتحقق يوسف عليه السلام بمقام المجاهدة، حيث يُثبت أمام غواية النفس، ويختار الحق على الهوى.

رابعًا: السِّجنُ: مَقامُ الخَلْوةِ والتَّلقِّي الإلهيِّ:

السجن، في هذا السياق، ليس عقوبة، بل مقام خلوة، حيث ينفصل الإنسان الكامل عن العالم، ويبدأ التلقي الإلهي. يقول ابن عربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "السجن هو مقام الخلوة، حيث يُصفى القلب، ويُلقى فيه نور الفهم، فإن تأول الرؤيا فقد دخل مقام العلم اللدني" (ابن عربي، ١٣٢٩، ص ٦٦).

في السجن، يبدأ يوسف عليه السلام في تأويل الرؤى، أي في فهم الإشارات، وهي لحظة فارقة، حيث يتحول من مفعول به إلى فاعل، من متلقي إلى مؤول. التأويل هنا ليس تفسيراً، بل كشفًا، حيث يُدرك يوسف عليه السلام بنية الوجود، ويُعيد تشكيلها في صورة رمزية. في هذا المقام، يصبح السالك مستعداً للتمكين، لأنه لم يعد يطلب شيئًا من الخلق، بل من الحق وحده.

خامسًا: التَّمكينُ: التَّجلِّي في عالَمِ الشَّهادةِ ومَقامُ البَقاءِ:

التمكين الذي يلي السجن ليس سلطة، بل تجلي، حيث يُعاد ليوسف عليه السلام مقامه، ويُصبح خادمًا للخلق، لا متسلطًا عليهم. يوسف عليه السلام لا يطلب الملك، بل يطلب الخدمة، لأنه يُدرك أن التمكين الحقيقي هو تمكين الروح، لا تمكين الجسد. يقول الإمام الجيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الإنسان الكامل لا يُمكّن ليملك، بل ليُظهر الرحمة، فإن تولى خزائن الأرض، فقد تولى توزيع النور" (الجيلي، ١٣٦٨، ص ٧٧).

في هذا المقام، يتحقق يوسف عليه السلام بمقام البقاء بعد الفناء، حيث يعود إلى العالم، لا بوصفه فردًا، بل بوصفه تجليًا، يُصلح، ويُوزع، ويُقيم العدل، لأنه لا يرى نفسه، بل يرى الحق في كل شيء.

سادسًا: الصَّفحُ والعَودةُ: مَقامُ الوَحدةِ بَعدَ التَّفْرِقةِ:

اللقاء مع الإخوة هو لحظة الصفح، حيث يتجاوز الإنسان الكامل التفرقة، ويعود إلى الوحدة. يوسف عليه السلام لا يُعاتب، بل يُسامح، لأنه يرى يد الله في كل شيء، حتى في الأذى. يقول ابن عربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الصفح هو مقام من رأى الفاعل الحقيقي، فإن عفا فقد تحقق بالوحدة، ورأى أن الكل تجلٍّ" (ابن عربي، ٢٠٠٦، ص ٥٥).

عودة يعقوب عليه السلام إلى البصر هي لحظة اكتمال الرحلة، حيث يعود النور إلى القلب، وتُستعاد البصيرة. يوسف عليه السلام هو النور، ويعقوب عليه السلام هو القلب، وعودة النور إلى القلب هي غاية السلوك، حيث يُدرك الإنسان الحق، لا بوصفه فكرة، بل بوصفه حضوراً.

خاتمةٌ تَأويليَّةٌ

إن يوسف عليه السلام ليست مجرد قصة، بل خارطة وجودية متكاملة، تُعيد تشكيل العلاقة بين الغيب والشهادة، بين الجمال والجلال، وبين الفناء والبقاء. فهي نص كوني يُجسّد بنية الإنسان الكامل، ويُقدّم

رؤية تربوية وفكرية لبناء شخصية متوازنة، تجُسّد الرحمة والعدل في عالمٍ يزداد فيه الضجيج وتُفتقد فيه الحكمة.

تُظهر ال أن القيادة الاقتصادية في الفكر الإسلامي تقوم على الكفاءة، والتزكية، والرحمة، حيث يصبح المنصب وسيلة لتحقيق العدل لا غاية للهيمنة. وهكذا يُعاد تعريف القيادة بوصفها تكليفًا لا تشريفًا، ويُربّى الإنسان على أن الكفاءة لا تُثمر إلا إذا اقترنت بالإخلاص، وأن التمكين لا يُدرك إلا إذا سُبِق بالابتلاء، وأن الإدارة لا تُفلح إلا إذا تأسست على الرحمة والعدل.

كما تُقدّم ال رؤية متكاملة للأمن الفكري، حيث يُصبح الوعي وقاية، والتحصين مقاومة، والاستبصار قيادة. وهي بذلك تُعيد تشكيل العقل المسلم ليكون ثابتًا في وجه الفتن، واعيًا في مواجهة التزييف، مستبصرًا في إدارة الأزمات، ومتصلاً بالوحي في كل خطوة.

المراجع

١. الربابعة، أ. ح.، & حسن، أ. ح. (٢٠٢٢). دلالة يوسف على مقصد حفظ المال وأثر ذلك في مواجهة الأزمة الاقتصادية المعاصرة. مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، ١٤ (١)، ٢٦٨ وما بعدها. الجزائر.

٢. ابن عاشور، م. ط. ب. م. ب. م. الطاهر التونسي. (١٩٨٤). التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (ج١). تونس: الدار التونسية للنشر.

٣. ابن عربي، أ. ب. م. م. الطائي الحاتمي. (١٣٢٩). فصوص الحكم (تحقيق: أبو العلا عفيفي، ج ١، ص ١٢٥). بيروت: دار الكتاب العربي.

٤. القشيري، أ. ق. ع. ه. ب. ع. م. النيسابوري الشافعي. (١٩٨٩). الرسالة القشيرية (تحقيق: عبد الحليم محمود، محمود ابن الشريف، ج ٢، ص ١٠٢). القاهرة: دار المعارف.

٥. ابن عربي، أ. ب. م. م. الطائي الحاتمي. (٢٠٠٦). المبادئ والغايات في معاني الحروف والآيات (تحقيق: سعيد عبد الفتاح، ص ١٢٦). بيروت: دار الكتب العلمية.

٦. الجيلي، ع. ك. ب. إ. (١٣٦٨). الإنسان الكامل في معرفة الآواخر والأوائل (ج ٢). مصر: مطبعة محمد علي صبيح وأولاده.

٧. السهروردي، ش. د. (٢٠١٠). حكمة الإشراق (تقديم: إنعام حيدورة، ص ٦٨). بيروت: دار المعارف الحكمية.

٨. القشيري، ع. ك. ب. ه. ب. ع. م. (دون تاريخ). لطائف الإشارات (تحقيق: إبراهيم البسيوني، ج ٢، ص ١٨٠). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.